مُذكَّرات سِرّية

وقصص أُخرى

مُذكَّرات سِرّية وقصص أخرى (قصص)

عائشة عبدالقادر شيخموس (كاتبة سورية)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 797162720، 65620722 (962+)
alaan. publish@gmail. com،
alaanpublishers. com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-474-0

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2022/2/779)

813.9

شيخموس، عائشة عبدالقادر

مذكرات سرية / عائشة عبدالقادر شيخموس. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(100) ص

ر. إ: 2022/2/779

الواصفات: القصص العربية// الأدب العربي// العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

عائشة عبدالقادر شيخموس

مُذكَّرات سِرّية

وقصص أخرى

فهرس المحتويات

عفريت الغرفة 307 9
اليوم الأول 11
ما لمْ يكنْ في الحسبان 15
العفريت 18
نهاية العفريت 22
الدفْ البعيد 25
أين أنا؟ 27
لكنني أحبها 31
مسجات لم ترسَل 35
الرسالة # 1 37
الرسالة # 2 39
الرسالة # 3 41
الرسالة # 4 43
الرسالة # 5 44
الرسالة # 6 45

مُذكَّرات سِرّية 47
يوم الفالنتاين 49
ألومُ مَنْ؟ 53
الدخيلة 57
عَبَراتٌ خانقة 64
حبٌّ ملطّخٌ بالألم 68
هلّا رأيتَ ما أرى! 73
بين الحلم والواقع 75
الألواح الخشبية العائمة 79
تناسقٌ بديع 81
الغرفة السحرية 83
40 شمعة... ثم ماذا؟ 85
صباحٌ روتيني 87
الموناليزا 90
سباق مع الزمن 93
صفعةٌ على الوجه 97

إهداء

إلى والديَّ رحمهما الله... قُدوتي ومنبع إلهامي

إلى ابني... نبض قلبي

إلى إخوتي وزوجي... سندي في سعيي نحو أحلامي

عفريت الغرفة 307

اليوم الأول

الـذكريات التـي أحملهـا في مخيلتـي عـن أفعالنـا أيـام السـكن الجامعي عبارة عن كوميديا سوداء، مزيج من المواقف المضحكة المبكيـة، لكنهـا رغـم ذلـك كانـت المتـنفَّس الوحيـد لنـا مـن ضـغوط الدراسة والغربة والمرحلة الجامعية بكل مطباتها ومنزلقاتها.

كنت أنا وأصدقاء طفـولتي ودراسـتي مجـد وكـرم قـد اتفقنـا علـى السكن في غرفة مشتركة في السكن الجامعي، رغـم أن كـل واحـدٍ منـا كان قد سجّل في كلية مختلفة. رأينـا أن ذلـك سيسـاعدنا علـى تحمّـل مشاقّ الغربة في مدينة أخرى بعيداً عن أهلنا. وبالفعل، في اليوم الـذي تقرر فيه تسلُّم الغرف، توجهنـا إلـى المسـؤول عـن التسـجيل وطلبنـا غرفة واحدة. طلبٌ كهذا عادةً مـا يقابَـل بالترحـاب لأنـه يسـاعد علـى تقليل المشكلات بين الطلبة في السكن بشكل عـام، بسـبب اخـتلاف الأطبـاع والعـادات الاجتماعيـة والشخصـية بـين الطلبـة في الغرفـة الواحدة.

استلمنا المفتاح ونحن نكاد نطير من الفرح. لكنها كانت فرحة لم تكتمل. ما إن فتحنا باب الغرفة حتى فوجئنا بوجود أربعة أسرّة! هذا يعني أنه سيكون هناك طالب دخيل في الغرفة! لا يمكن! مستحيل!

وضعنا حقائبنا ووقفنا ننظر إلى بعضنا البعض وإلى السرير الرابع في حيرة ورعب.

«ماذا يتوجب علينا فعله الآن يا شباب؟».

سألَنا كرم مكرراً السؤال الذي كان يتردد في رؤوسنا.

«وجدتُها!».

فجأة أعلن مجد بصوت مرتفع. نظرنا أنا وكرم إليه بشوق، فهو حلّال المشاكل بأفكاره العبقرية.

«نقوم بإخراج السرير في الليل بينما الكلُّ نيام. وإذا سُئلنا عن سبب وجود ثلاثة أسرّة بدل الأربعة، ندّعي أن هذا ما وجدناه عند تسلّمنا للغرفة!».

تبادلنا ثلاثتنا الأنظار نقلّب الفكرة يمنة ويسرة.

«موافق».

قلتُ معلنـًا عن تأييدي للفكرة.

«لا بأس من المحاولة».

علّق كرم مبرراً لنفسه تلك الفعلة الشنيعة.

وبالفعل، قمنا بتوضيب أغراضنا ووضعها في أماكنها المخصصة. ثم خرجنا نتجول في أنحاء المبنى لنرى أين يمكننا وضع السرير الرابع. بعد قرابة الساعة، اكتشفنا وجود غرفة أشبه بالمخزن كانت تحتوي على عدّة أسرّة وأدوات أخرى، لكنها كانت في الطابق الأعلى. هذا يعني أنه يتوجب علينا حمل السرير على الدَّرَج! لا بأس. كنا مستعدين لأيّ مجازفة في سبيل عدم وجود شريك رابع لنا في الغرفة. تبادلنا النظرات في ما بيننا مع ابتسامة شريرة وكأننا نقول: «اتفقنا!».

كانت الساعة قرابة الواحدة بعد منتصف الليل. أخرج مجد رأسه إلى الممر، وتأكّد خلوّه من الطلبة. أشار لنا بيده، فخرجنا أنا وكرم ونحن نحمل السرير في ما بيننا بكل حذر. كان مجد هو الكشّاف الذي يستطلع لنا الطريق فكان يتقدمنا بعدة أمتار ويشير لنا بالتقدم كلما تأكد خلوّ المكان. بالطبع لم نكن نرتدي أيّ أحذية في أقدامنا لتجنب إصدار أي صوت.

حين وصلنا إلى الدّرج للصعود للطابق الأعلى، إذا بباب الغرفة المجاور لنا يُفتح ويظهر أمامه أحد الطلبة وهو يضع سيجارة في فمه،

وبكلتا يديه يحاول إشعالها. تمسمرنا في مكاننا ونظرنا إليه برعب. لقد تمَّ اكتشاف جريمتنا وأيدينا ملطخة بالدماء. ولدهشتنا، فقد تمسمر هو أيضاً في مكانه ونظراتُ الرعب في عينيه. فالسجائر ممنوعة منعاً باتاً في المبنى، ونحن كشفناه الآن متلبساً!

كانت أطول خمس ثوانٍ لنا جميعاً، ونحن جامدون في أماكننا كالتماثيل كل واحدٍ في وضعية مختلفة، نتبادل نظرات التوجّس في ما بيننا.

فجأة، أشاح بنظره وأكمل محاولاته لإشعال سيجارته وتحرّك نحو الشرفة وكأنه لم يرَنا. إذن هذا هو الاتفاق الصامت بيننا: لا هو رآنا ولا نحن رأيناه! رائع!

وبكل اغتباط، أكملنا طريقنا بسرعة وهدوء على رؤوس الأصابع نحو الدرج ونحن نحاول جاهدين كتم ضحكاتنا. وضعنا السرير في المخزن، وعُدنا أدراجنا إلى غرفتنا بسرعة. وما إن صرنا فيها، حتى ارتمينا على أسرّتنا وانفجرنا في الضحك، لكنَّ كرم قفز بسرعة وركض نحو الحمّام. كاد يبلّل ملابسه من الخوف والضحك.

ما لمْ يكنْ في الحسبان

استيقظنا صباح اليوم التالي، واتفقنا على الالتقاء في أحد المطاعم قرابة الساعة الثالثة ظهراً لتناول وجبة الغداء والتوجه بعدها إلى السوق لشراء بعض الحاجيات للغرفة.

عند عودتنا للسكن في المساء، كانت الساعة قرابة الثامنة. عندما اقتربنا من غرفتنا، لاحظنا وجود ضوء يتسلّل من تحت الباب، وصوت أغنية يصدر من الغرفة. وقفنا أمام الباب ننظر لبعضنا البعض في حيرة وتساؤل:

هل أخطأنا المبنى أو الطابق؟

استوقفْنا أحدَ الطلبة في الممر وسألناه:

«عفواً، ما رقم هذا المبنى؟».

«5A».

إذن نحن في المبنى الصحيح، وهذا رقم غرفتنا: 307.

استجمعتُ قواي وطرقتُ بخفة على الباب. توقف صوت الأغنية، وجاء صوت قوي من الداخل:

«تفضل!».

تفضلنا بالدخول ثلاثتنا في آن واحد متدافعين ومتشوقين لمعرفة هذا الشبح. وإذ بنا نُفاجأ بشاب يجلس على سريرٍ رابع!

التفتنا هنا وهناك، كانت هذه غرفتنا بالفعل، فهذه أسرّتنا وحاجياتنا، ولكنْ مع وجود سرير وشخص رابع!

«مرحبًا يا شباب! أنا قيس، شريككم في الغرفة، ويسرني لقاؤكم».

ثم تقدم نحونا ليسلم علينا. بادلناه السلام والدهشة قد عقدت ألسنتنا والريبة مخيمة فوق رؤوسنا. لاحظ ارتباكنا وقرأ تساؤلاتنا من وجوهنا، فشرح لنا الأمر.

«لقد تسلَّمتُ مفتاح الغرفة اليوم. وعند دخولي، لم أجد السرير المخصّص لي، فأخبرتُ مشرف السكن الذي استغرب الأمر. فجاءَ بنفسه وتأكد من عدم وجود سرير لي، فأمرَ العمالَ بأن يحضروا لي سريراً من المخزن. وهأنذا بينكم الآن!».

حاولنا جاهدين أن نرد عليه بنفس الحماس والسعادة، لكن الإحباط الذي أحسسنا به كان طاغيًا. وما كان يغيظنا أكثر هو أنه السرير نفسه الذي نقلناه إلى المخزن بالأمس.

«شباب!».

كتبتُ لمجد وكرم عبر الهاتف.

«ما الحل؟ لا أشعر بالارتياح بوجود شخص غريب بيننا».

«وأنا كذلك».

ردَّ كرم.

«لكنْ دعونا نمهله بعض الوقت. فقد يكون طيّب المعشر».

«أتفقُ معك».

ردَّ مجد.

«ولكن إن أثبتَ عكس ذلك، فالويل له مني. تصبحون على خير الآن».

العفريت

خلال الأسبوع التالي، أثبت قيس بأنه أسوأ شريك في الغرفة، بسبب عاداته غير المتوافقة مع عاداتنا. فعلى سبيل المثال، فترةُ الاستيقاظ في الصباح أصبحتْ أسوأ من الكابوس بالنسبة لنا. معظمُ الناس يضبطون ساعة المنبه على وقت واحد، إلا قيس. فقيس كان يضبط ساعة المنبه في جواله على الساعة الخامسة فجراً، والخامسة وعشر دقائق، والخامسة والربع، والخامسة والثلث، والخامسة والنصف! في حين أن ثلاثتنا كنا نضبط منبهًا واحداً على الساعة السادسة صباحًا فنستيقظ مباشرةً. على الرغم من أنّنا لمحّنا له عن هذه العادة المقلقة التي كانت تتسبّب باستيقاظنا مبكراً وانزعاجنا من المنبهات المتكرّرة، فقد أصرَّ قيس على ذلك الدأب لأنه كان يعاني من ثقلٍ في النوم ويحتاج لأكثر من منبه للاستيقاظ.

«عندي الحل!».

كتب مجد عبقري الشلة عبر الهاتف بعد محاولاتنا اليائسة مع قيس.

«لكنّني سأشرع بتنفيذه بعد عدّة أيام».

وبالفعل، بعد أيام، وقُبيل انطلاق منبه الساعة الخامسة فجراً، كان مجد في سريره المجاور لسرير قيس مستيقظًا ومترقّبًا كالنسر. وما كاد المنبه ينطلق، حتى مدَّ يده للهاتف بسرعة وأطفأه. وكرّر ذلك لجميع المنبهات التي تلتها. ثم عاد لسريره سعيداً بإنجازه.

وفي تمام الساعة السادسة والنصف، قفز مجد من سريره وراح يصرخ فينا جميعًا:

«استيقظوا يا شباب، استيقظوا! لقد تأخر الوقت! إنها السادسة والنصف!».

قفزنا أنا وكرم من أسرّتنا والدهشة على وجوهنا، وأيقظْنا قيس بسرعة وهو يحاول استيعاب ما حدث. أخبرَنا مجد بأن جميع المنبهات لم ترن! لم يكن قيس قادراً على توجيه إصبع الاتهام لنا لأننا كنا متأخرين مثله تمامًا! فعيوننا الشاخصة المرعوبة بعد أن استيقظنا بشكل مفاجئ أكدت له ذلك.

في اليوم التالي، تكرّر نفس السيناريو، وازدادت دهشة قيس وحيرته.

«أعتقد أن هناك عفريتًا في الغرفة!».

قال مجد بينما كنا نحن الأربعة نشرب الشاي على الشرفة.

«عفريت!».

تساءل قيس باستغراب.

«وهل تؤمن بوجود العفاريت وقدرتهم على القيام بهذه الأعمال؟».

«ولِمَ لا؟».

قلتُ بسرعة محاولاً مجاراة ادّعاء مجد.

«لقد سمعتُ عن بعض القصص من بعض الطلبة الذين أقاموا في هذا المبنى سابقًا. لا بُدَّ وأن العفريت لا يريدنا في هذه الغرفة».

مع أن قيس لم يبدُ مقتنعًا بالفكرة، إلا أنّنا نجحنا في إدخالها في رأسه.

وتتابعت خطط مجد العبقرية حتى كادت تنطلي علينا أنا وكرم أيضًا. بالطبع كان الهدف من عدم إشراكنا في خططه مسبقًا هو أن تكون ردودُ أفعالنا حقيقية أمام قيس.

من المقالب الأخرى التي أوحتْ بوجود عفريت في الغرفة هي إحداث أصوات مفاجئة مثلاً، أو قرقعة أدوات المطبخ أو سقوط الأدوات من فوق الأرفف. كان مجد يخطط لها وينفذها باحترافية باستخدام خيط نايلون شفاف ودقيق جداً لا يكاد يُرى. وكنا أنا وكرم

وقيس نقفز بشكل مضحك أو نصرخ من هول المفاجأة. حتى إنَّ كرم كاد يختنق مرّة وهو يحتسي الشاي. وكان مجد غالباً ما يكون مختبئاً في مكانٍ ما أثناء تنفيذه لهذه المقالب لتجنّب الضحك أمام قيس وانكشاف المؤامرة.

نهاية العفريت

انتشر خبر وجود عفريت في غرفتنا في كامل المبنى السكني، وتزايدت القصص والروايات مع زخرفة وبهارات من هنا وهناك. كنا نستمع لها بتشوّق وندّعي بأننا لن نسمح للعفريت بالتغلب علينا، وأننا سنعمل جاهدين على تحدّيه وحمله هو على ترك الغرفة.

وفي يومٍ ما حدث ما لم يكن في الحسبان. بينما كنا نحن الأربعة جالسين إلى طاولاتنا كلٌّ منهمك بدراسته، إذ بمشرف السكن يطرق الباب ويستأذن بالدخول. راح يسألنا عن مدى صدق الإشاعات.

هنا، أحسسنا بالخطر يهدّدنا. ففي حال ثبوت الإشاعات، قد يقوم بإخراجنا كلّنا ونقلنا لغرفة أخرى، ولم نكن نرغب في ترك حجرتنا لتميّزها عن الأخريات بموقعها الذي كان يسمح بدخول الشمس الدافئة طوال أيام الشتاء، أو قد يقوم بتفريقنا وتوزيعنا على عدّة غرف.

وحين هممنا بالردّ بأنها مجرد إشاعات لا مكان لها من الصّحّة، إذا بقيس يؤكّد للمشرف صحّة القصص والشائعات. لكننا بسرعة

نفينا ذلك وشدّدنا على أن فكرة وجود عفريت غير منطقية وأننا أكثر وعياً من تصديق مثل هذه الأمور.

هنا سكت قيس وراح ينظر إلينا وهو غير مصدّق لما تسمعه أذناه. ألم يكن هؤلاء الثلاثة يحاولون منذ عدّة أيام إيهامه بصدق الرواية!

بعد فترة ليست بالطويلة، انتقل قيس إلى مبنى آخر بعيد عنا تماماً. لم نكن نعلم إنْ كان علينا أن نفرح أم نحزن لذلك، فقد نجح عفريتُنا بإخراج الشريك الدخيل من جهة، لكنْ بعد أن تسبّب له بكوابيس وأوهام من جهة أخرى. إلّا أنّ الشيء الذي كان رائعاً بالفعل هو الصباحات الهادئة على منبّه واحد.

التقينا بقيس مصادفة مرات عدّة بعدها بصحبة شركائه في الغرفة، وأكّدوا جميعهم بأنهم يقضون وقتاً رائعاً لتوافق طباعهم. كان ذلك ما كنا نتمنى سماعه.

عزيزي قيس، إنْ وقع هذا الكتاب بين يديك، فإنّنا نستميحك عذراً عن تلك الأحداث في أيام الجامعة. من معرفتي بك خلال تلك الأشهر القليلة، أنا واثق كلّ الثقة بأنك تقرأ كل هذا وأنت تضحك من أعماق قلبك.

الدفُ البعيد

أيـن أنـا؟

كان الظلام الحالك يغطي جميع أنحاء المدينة الناعسة، فالغيوم الداكنة تحجب نورَ القمر والنجومِ البعيدة. والشوارعُ الخاوية مبلّلة بمياه الأمطار التي كانت قد هطلت بغزارة عصر ذلك اليوم.

فتح عينيه الصغيرتين ببطء.

أين أنا؟ أشعر وكأنَّ عظامي مجمّدة من البرد! لماذا لا أرى شيئًا؟ ما هذا الظلام الحالك من حولي؟ آه، ذاك هو حوض الاستحمام، وتلك هي المغسلة، وذاك هو الباب.. الباب! إنه مقفل! لماذا قفلتْه ماما؟

« ماما! افتحي الباب يا ماما!».

ها! هناك صوت في الجانب الآخر، لابد أنها ماما قادمة لتخرجني من هنا.

«ماذا تريد يا ولد؟».

هذا ليس صوت ماما! إنه صوت تلك السيدة المرعبة! يا إلهي!

« افتحي الباب!».

« لا لـن أفتحـه وابـقَ هنـاك لتتعلّم اسـتخدام الحمـام بـدل توسـيخ سجادتي الثمينة».

الحمـام! توسـيخ؟ لكنّـي أعـرف اسـتخدام الحمـام! آه تـذكرت! عندما استيقظتُ صباح اليوم كانت هناك بقعة بللٍ على السجادة. لا أدري مـن أيـن أتـتْ إلـى هنـاك، ثـم دخلـتْ تلـك السـيدة المرعبـة وصـارتْ تصـرخ بكلمـات غريبـة. كانـت تشير إلـى ملابسـي المبللـة والبقعة على السـجادة. سـحبتني مـن يـدي، كانـت قبضـتها حديديـة، رمتنـي داخـل الحمـام وأقفلـت البـاب مـن الخـارج، وظلّـت تصـرخ بكلمات لم أفهمها.

آه يا بطني، إنها تؤلمني، إنها تصدر أصواتـًا غريبـة. لمـاذا تكرهنـي تلك السيدة؟ أين أنت يا ماما؟ بالأمس فقط كنتِ بقربي.

أذكر أننا ركبنا السيارة ونزلنا في مكـان غريـب، كـان مبنـى ضـخمـًا جداً، ورجال ونساء عمالقة يتحركـون بسـرعة هنـا وهنـاك، والجميـع عابس أو غاضب، وشـرطة، الكثيـر مـن الشـرطة. أذكـر أن بابـا أيضـًا كـان هنـاك. تشـاجرتِ أنـتِ وبابـا بصـوت مرتفـع، وكـان هنـاك رجـل عجـوز جـالس وراء طاولـة مرتفعـة، قـال أشـياء غريبـة. ثـم خرجـتِ، وبقيتُ أنا مـع بابـا. سـحبني مـن يـدي بقـوة. لمـاذا كـان بابـا غاضبـًا؟

لا بد أنني فعلتُ شيئًا أغضبه! هل سيضربني؟ هل سيعاقبني؟ ربما. كان دائمـًا يصرخ في وجهي ويأمرني أن أدخل غرفتي. وكان دائما يصرخ هو وماما. لماذا ماما وبابا يتشاجران دائمًا؟

جرّني بابا من يدي بقوة وفتح باب سيارته العملاقة واقتلعني بشدة من الأرض ورماني بقوة في المقعد الخلفي. آه يا ظهري! من الأفضل أن أسكت! فقد يصفعني بابا على وجهي إنْ تكلمت! وانطلقت السيارة بسرعة.

أنا جائع. ذلك محل سندويشات وعصائر، أريد عصير برتقال! هل أخبر بابا؟ لا لا، إنه غاضب، ويتكلم على الهاتف. إنْ تكلمتُ الآن، فقد يضربني.

توقفت السيارة، فتح بابا الباب وصاح:

«انزل!».

لكن الأرض بعيدة عن قدميَّ الصغيرتين يا بابا! هل أخبره؟ لكنه مشى بعيداً ودخل المبنى الضخم. حسنًا سأقفز.. آه يا ركبتي! هذا مؤلم! هل أخبر بابا؟ ماذا لو صرخ في وجهي؟ سأركض لألحقه.

هذا منزل جديد، وكانت هي هناك في الصالة. نظرتْ إليّ بنظراتٍ غريبة. كانت عيناها مخيفتين كالوحش. راحت تصرخ في وجه بابا،

وبابا أيضـاً راح يصرخ. لماذا الجميع يصرخ؟ من الأفضل أن أسكت وإلا ضربوني.

سحبَتْني من يـدي ودفعَتْني بقـوة داخـل غرفـة صـغيرة فسـقطتُ عـلى وجهي.

« لا تخرج من هنا أبداً، مفهوم؟».

وأغلقتِ الباب بقوة وكأنها صفعة لاهبة مثل الرعد على وجهي.

يا لها من غرفة مظلمة! لا يوجـد شـيء مسـلٍّ. سـتائر عملاقـة مثـل الأشباح، خزانة ضخمة كأنها ديناصور جائع، وغبار في كل مكان.

أنا متعب... سأتمدَّد قليلاً على هذه السجادة الدافئة.

لكنني أحبها

ماما! أريد ماما!

هـذه الأرض متجمـدة. سـأجلس داخـل حـوض الاسـتحمام، قـد أشعر ببعض الدفء، إنه يشبه حضن ماما؛ كبير ودافئ! أريد ماما!

يا إلهي! ما هذا الصوت؟ إنها تلك السيدة ثانيـةً! مـا بالهـا تصـرخ هكذا؟ هل ستضربني؟ آخ يا يدي! لماذا تسحبني هكذا بقوة؟ لمَ هي غاضبة؟ ماذا فعلتُ؟ أنا لم أبلل ملابسي! آه.. الغرفة الصغيرة ثانيـة! وأخيراً! السجادة الدافئة! آه يا رِجلي! لماذا رمتْني هكذا؟

«إياك ثم إياك أن تخرج من هنا أو توسخ سجادتي. مفهوم؟».

يا لها من عملاقة مخيفة! وإصبعها الذي تهزّه في وجهي أشبه بذيل تنين حانق وجائع! وصوتها يهزّ المكان كبركان هـائج! وأخيراً انتهـى كل شيء! سأعود إلى النوم.

ما هذا الصوت؟ بابا! إنه بابا على الجانب الآخر من الباب!

« بابا! بابا!».

الباب مقفل!

« بابا! بابا!».

لماذا لا يردّ بابا علي؟ هل يعرف ما فعلَتْه تلك المرأة بي؟

صوت المفتاح!

« كفاك صراخـًا يا ولـد! أبـوك متعـب ويرغـب أن يرتـاح قلـيلاً. لا أريد أن أسمع صوتك أبداً».

« لكني أريد بابا!».

«قلتُ لك إنَّ أباك سينام! هيا اجلس هناك ساكتـًا».

« أريد ماما!».

«ماما؟ تريد ماما؟ أمك تخلّتْ عنك وتركَتك في وجهي أنا. يا لحظي النحس!».

وعادت الظلمة ثانية إلى الغرفة.

ماما تركَتني؟ تخلّتْ عني؟ لماذا؟ أنا لا أصدّق كلامها. أريد ماما!

آه يا بطني، ظهري، رأسي. لا أستطيع التحرك.. أشعر بالبرد. لماذا لا تأتي ماما وتأخذني من هنا؟ أريد أن أتناول سندويشة جبن، أريد أن أنام على سريري الدافئ في منزلنا الكبير، أريد أن أرى وجه ماما. كانت تصرخ فَّي كثيراً دون أن أعرف السبب، لكنّني أحبها

وأريـد أن أتكـوّر في حضـنها وأضـع رأسـي علـى صـدرها وأغمـض عيني؛ هكذا..

يا له من مكان جميل! ما كل هذه الأشجار والأزهار؟ إنني أحلّق! إنني أطير! إنه مكان رائع! أريد البقاء هنا للأبد!

مسجات لم ترسَل

الرسالة # 1

ابني الغالي،

أعلمُ بأنكَ غضبتَ منّي لكلماتي الجارحة ونبرتي الحادة صباح اليوم. لكن اعلمْ يا ولدي بأنّني ما غضبت منك ولا كرهتك، وإنما أحبك حبّاً كبيراً وأخاف عليك من مطبات الحياة يا عمري.

إنني أخشى عليك من قرارك الذي لا أراه صائباً ومن النّدم في يومٍ ما. فخبرتي في هذه الحياة القاسية علّمتني الكثير من الدروس والعِبر التي لم تتعلمها أنتَ بعْد، ولا أريدك تعلمها بعد فوات الأوان.

أحترمُ اختياراتك يا بني، وأعلمُ بأنك ترى في تلك الفتاة جوانب لا أستطيع أنا رؤيتها من زاويتي، لكنَّ اتخاذ خطوة كبيرة مثل الزواج بهذه السرعة وبعد فترة وجيزة من معرفتك بتلك الفتاة ليس بالأمر المنطقي.

تحلَّ ببعض الرويّة يا بني ولا تعقد العزم إلا وقد فكّرتَ بعقلك لا بقلبك. أخشى عليك أن تأتيني يوماً باكياً نادماً على تسرّعك. لن أقدر حينئذٍ على تحمّل رؤية دمعة واحدة تنزل من عينيك الغاليتين يا فلذّة كبدي.

سامحني يا بني لأنني جرحتك اليوم بحبي الكبير.

ارجع يا بني لنتناقش في الأمر بروية ونصل لحلٍّ مرضٍ لنا جميعًا.

ارجع أرجوك.

تم حذف الرسالة

الرسالة # 2

مساء الخير عزيزي الدكتور سفيان.

لقد تردّدتُ كثيراً قبل كتابة هذا المسج لك، لكنني لم أعدْ قادرة على كتمان ما في قلبي. اسمح لي أن أكون في قمّة الصراحة والوضوح معك اليوم.

ما زلتُ أذكر أول مرة رأيتُك فيها. كان ذلك منذ عدة أشهر في أول يوم لي في الكلية. لم يكن لرؤيتك آنذاك أي تأثير علي. كنتَ شخصاً عادياً جداً في نظري. كنتَ تمثّل لي الأستاذ الذي يحمل مصير مادة جامعية بين يديه، مصير درجاتي ومعدلي ومستقبلي. كنتَ شخصاً اعتيادياً بملامح وجهك العربية وبشرتك السمراء وجبينك العريض وابتسامتك الصغيرة ونظراتك الملأى بالفضول للتعرف على طلبتك الجدد.

لكن بعد عدّة محاضرات، لم أعد أراك كذلك. اكتشفتُ فيك روحاً طيبة وقلباً صافياً وعقلاً كبيراً متفهّماً وأخلاقاً سامية. بتُّ لا أرى فيك إلا شخصاً متكاملاً والكمال لله وحده. صرتُ على الدوام

أبدأ يومي وأنهيه بالتفكير بك وبمدى روعتك. وزاد تعلّقي بك يومًا بعد يوم حتى صرتَ كل ما يتملّك تفكيري.

وها قد انتهى الفصل الدراسي ولن أتمكن من رؤيتك بعد الآن أو التذرع بأي سبب للتحدث معك!

قل لي ما الحل؟ ما الذي عليّ فعله لأتوقف عن التفكير فيك؟

أرجوك قل لي.

تم حذف الرسالة

الرسالة # 3

أمي الغالية،

سامحيني لأنني كنتُ قاسياً معك صباح الأمس، لكنكِ جرحتني يا أمي. لم تنصتي لرأيي، غلّقتِ ليس فقط آذانك، بل وعقلك عن وجهة نظري واقتراحاتي. كنتِ ترغبين في فرض رأيك عليّ ومعاملتي كالطفل الصغير وإجباري على اختيار ما تريدينه أنتِ، متجاهلة كوني قد أصبحتُ ناضجاً بما فيه الكفاية لأحدّد مسارات حياتي بنفسي.

لِمَ خفتَتْ ثقتُك بي يا أمي؟ أنتِ مَن أنشأتني على الاستقلالية وحرية الاختيار، واليوم تقفين في وجه أهمّ قرار لي في حياتي! كم كنتُ أتمنى أن ألقى منك التفهّم والدعم في هذه المرحلة من رحلتي في الحياة.

أعلم علم اليقين بأنه ليس بالقرار السّهل، وأنه يحمل بين ثناياه الغموض والمفاجآت، ولكن تذكري يا أمي أنّ الغموض هو سمةُ كلِّ يومٍ جديدٍ لنا. هكذا هي الحياة، نخطّط لها بعناية، ونضع الاحتمالات، ونُفاجأ بأمر يقلب لنا كلَّ خططنا رأساً على عقب. بيد

أنَّ ثقتنا بأنفسنا وبقراراتنا وخططنا البديلة هي التي ستساعدنا على تجاوز العقبات.

إنني آسف جداً على ما حدث. لم أكن أرغب في ترك المنزل ولا أن تصل الأمور بيننا إلى هذا الحد. كم أتمنى أن تكوني أنتِ وإخوتي جزءاً من سعادتي القادمة، لكن يبدو أن قسوتك لا حدود لها.

كم أرغب في الهروب من قسوتك والارتماء في حضنك الدافئ يا أمي!

سامحيني.

اشتقت لك كثيراً.

تم حذف الرسالة

الرسالة # 4

عزيزي جهاد،

أرجو أن تكون بخير.

لا تستغرب من مسجي هذا بعد خلافنا الأخير منذ أسبوع. كانت نهاية بشعة لقصة حبٍّ دامت لسنوات. أعترفُ لك الآن وبعد بُعدك عني لأسبوع بأنني اشتقتُ لك كثيراً وأنني ما زلتُ أحبك. أعتذر عن كل ما قلتُه لك وعن كلماتي الغبية وظنوني المجنونة.

لنَرْمِ كلَّ ذلك في سلّة الماضي ونستكمل أحلامنا التي رسمناها معًا للمستقبل، الآن وقد أصبحنا على بُعد خطوات من يوم العمر. دعنا نكتب هذه الحادثة في دفتر الذكريات ونضحك عليها معًا في السنين القادمة. دعنا نعتبرها اختباراً وامتحانًا لمشاعرنا وكيف نواجه عقبات الحياة معًا. لقد أظهرت لي هذه الحادثة قَدْر حبّي لك وتعلقي بك.

سأنتظرك صباح الغد لشرب فنجان قهوة في مكاننا المعتاد.

أحبك.

تم حذف الرسالة

الرسالة # 5

عزيزتي آمال، أو دعيني أناديك بابنتي آمال،

ها قد شارف الفصل الدراسي على الانتهاء. لقد سعدتُ جداً بمعرفتك أنت وزميلاتك في هذه الدفعة. كنتن خير طالبات مجتهدات وطموحات، وبالأخص أنتِ. فقد كنتِ شعلةً متّقدة من النشاط والتميّز وتذكّرينني بأيام شبابي في الكلية. وما أسعدني أكثر هو ثقتك الكبيرة بيّ وائتماني على كل ما يجول في خاطرك، وطلبك للنصح مني عند مواجهتك لبعض الأزمات في الدراسة. كانت فرحتي لا مثيل لها كلما رأيتُ الابتسامة على وجهك بعد تمكّنك من حل أيّ مشكلة.

أتمنى لك يا حياة حافلة بالنجاح والسعادة، وسيسعدني إن أبقيتني على اطلاع حول ما يستجد في حياتك عمومـًا، وإن احتجتِ لأي نصحٍ، فسأكون سعيداً لتقديمه لك، يا ابنتي العزيزة.

تم حذف الرسالة

الرسالة # 6

صباح الخير.

ليكن بعلمكِ أنني لم أكن أرغب في إنهاء علاقتنا وفسخ خطوبتنا. لقد أحببتُكِ حبّاً لا يمكنكِ تصوّره. كنتِ كل حياتي وكل دقّة في قلبي وكل نَفَس في صدري. كنتِ الحلم والمستقبل وكل آمالي، لكنكِ أصبحت الآن كل آلامي.

لقد حطّمتِ كل شيء بيننا بأفكارك الغريبة. كيف لي أن أستمر وأنت لا تثقين بي؟ كيف لنا أن نبني بيتاً ونربي أبناءً على أسس تهددها الظنون؟

لطالما عرفتِني لسنوات وعرفتِ طباعي ومبادئي وعلاقاتي مع مَن هم حولي من أقرباء وأصدقاء وزملاء.

كنتُ أنتظر منك اعتذاراً أو أيّ بادرة للتعبير عن أسفك، لكنك مصرّة على موقفك هذا.

أسفي على كل اللحظات الجميلة بيننا والأحلام التي نسجناها معاً. حطمتِها أنتِ وظنونك القاتلة.

اعذريني على ما فعلتُه، لكنني لم أعد أحتمل أكثر من ذلك.

سأظل أكنُّ لك كل الاحترام.

الوداع.

تم حذف الرسالة

مُذكَّرات سِرِّيـة

يوم الفالنتاين

كنا مجموعة من خمسة شباب في السنة الأولى في الكلية. بالطبع، وككل المراهقين، كنا نرى أننا قد وصلنا لذروة الرشد والرجولة والاستقلالية رغم أن معظمنا كان بالكاد قد أكمل سنّ الثامنة عشرة. فلقب «طالب جامعي» يوحي بالخبرة والحكمة والاتزان، لكننا كنا بعيدين كل البُعد عن ذلك.

من المواقف الطريفة التي مرّت علينا هو ما فعلناه بصديقنا تيم. كان تيم معجباً بإحدى الزميلات من الكلية نفسها، وكان يحاول بذل قصارى جهده للفت انتباهها. فكان يجعلنا نجلس في الصفوف التي تقع وراءها في القاعات الدراسية حتى تسمعَه بوضوح. ثم كان يبدأ بإلقاء النكات السخيفة، برأينا، لننفجر كلنا بالضحك المرتفع والصاخب، كما كان يطلب منا مسبقاً، في حين أنه كان يكتفي بابتسامة خفيفة كلها وقار واتزان، مسترقاً النظر لتلك الفتاة ليتأكد أنها قد أكلت الطُعم. كان ذلك أسلوبه في إيقاع الفتيات في شباكه.

قرّرنا أنا وشباب الشلة، دون علم تيم، أن نساعده في الوصول للفتاة التي سرقت له قلبه وعقله. فتمكنتُ بطريقة ما من الحصول

على حسابها على الانستغرام، وقمنا بإنشاء حساب تحت اسم تيم وأضفنا له بعض الصور التي كنا قد تصورناها معـاً في مناسبات مختلفة.

تواصلنا مع الفتاة عبر الانستغرام على أننا تيم، وصرنا نتبادل معها أطراف الحديث العامة في البداية حول الدراسة والكلية، ليتطور الحديث بعدها بأيام ويصبح حول الهوايات الخاصة والأغنيات المفضلة وما إلى ذلك من المواضيع التي تستهوي الفتيات.

يوماً بعد يوم، تغيرت تصرفات الفتاة نحو تيم الذي كان سعيداً بذاك التطور ظناً منه بأن محاولاته للفت انتباهها قد نجحت أخيراً. فقد أصبحت الفتاة تمشي من أمامنا بقصد وتنظر من طرف عينيها لتيم بدلال، وكلما كنا نضحك على نكاته، كانت تتلفت وتنظر لتيم مع ابتسامة رقيقة وكأنها تقول:

«نكتة جميلة. أنت خفيف الظلّ حقاً».

كانت تلك الحركات والنظرات تجعله يطير فرحاً واغتباطاً، في حين أننا كنا نتبادل الغمزات فرحين بإنجازنا بتأليف القلوب.

قرّرنا بعدها الانتقال إلى المرحلة الثانية من الخطة، وهي إعداد الظروف ليلتقيا معـًا بالصدفة. وكان الموعد المحدّد لذلك هو يوم الفالنتاين.

أزمعنا خمستنا على شراء عدد من الهدايا ولقاء صديقاتنا من أيام الدراسة الثانوية في إحدى المقاهي في يوم الفالنتاين، لنقضي وقتـًا جميلاً نسترجع خلاله ذكريات المدرسة. وفي الوقت نفسه، تواصلنا مع الفتاة من حساب تيم المزيف وأعطيناها موعداً في المكان نفسه، لكن بعد موعدنا المحدد بربع ساعة.

في اليوم المقرر، اجتمعنا كلنا على الطاولة نفسها، تيم وأربعتنا، بالإضافة إلى ستٍّ من صديقاتنا. كان اللقاء غاية في المرح ومليئـًا بالضحكات. وعند حلول ساعة الصفر، تبادلنا أربعتنا النظرات، وبالتدريج اختلقنا الأعذار المختلفة لنغادر المكان بشكل مؤقت. بقي تيم بصحبة الفتيات الست منغمسين في القصص والنكات.

ما هي إلا دقائق حتى ظهرت فتاتنا بطلة القصة في المقهى وهي مصعوقة من هول المشهد. بهدوءِ ما قبل العاصفة وبنظرات مملوءةٍ بالشرار المتطاير، تقدمتْ نحو تيم الذي تفاجأ بوجودها هناك في

تلك اللحظة، وقفتْ أمامه ورمتْ في وجهه باقة وردٍ كانت تحملها وصرخت بحنق:

«مخادع!».

كنا واقفين بعيداً نراقب المشهد ونصوّره على كاميرات هواتفنا المحمولة، محاولين كتم ضحكاتنا.

عقدت الدهشةُ لسان تيم حتى إنه ظل متسمراً في مكانه مذهولاً وعاجزاً عن الحركة. سادت ثوانٍ من السكون على الطاولة وفي أنحاء المقهى، انفجرت بعدها الفتيات بالضحك. وخرجنا نحن من مخبئنا ليكتشف حينها تيم بأنه مقلب.

بالطبع، لم يكن تيم سعيداً بما حدث، واعتذر بعدها من الفتاة وأعلمها بأنها كانت خطتنا ولم يكن على دراية بها، وتوقف بعدها عن ملاحقتها.

لا نزال نحتفظ بمقطع الفيديو وننفجر بالضحك كلما شاهدناه.

ألومُ مَنْ؟

رغم مرور أكثر من عشر سنوات على الحادثة، لا تزال تفاصيلها تؤرقني وتسبّب لي كرهـًا لنفسي. لم أعترف بالحقيقة لأحد، ولا يعرف بتفاصيلها أيّ شخص باستثناء والدتي، شريكتي في الجريمة، بل هي من دفعتني للقيام بما فعلتُه. لا أجد نفسي قادرة على مسامحتها حتى يومنا هذا.

كنتُ قد تخرّجتُ من الثانوية للتوّ عندما تقدّم لخطبتي شاب تتمناه كلُّ فتاة. لم تكن والدتي تريد أن تخسر تلك الفرصة الذهبية لابنتها الوحيدة، في حين أنني كنتُ أرغب في استكمال دراستي في الجامعة. وقعتْ بيننا حينها مشادّة كلامية حادّة استمرت لعدة أيام. حاولتُ جاهدة إقناعها بأنني ما أزال صغيرة السنّ وأنني أتشوق للاستمتاع بسنوات الشباب وتجربة المرحلة الجامعية بكل ما تحمله من إثارة ومغامرة. بعد أيام من النقاش المحموم، استسلمتْ والدتي لتوسلاتي ودموعي، ولكنْ وفق اتفاق بيننا، يقوم على أن استكمل دراستي بعد الزواج.

وبالفعل، تمت مراسيم الزواج قُبيل بداية العام الدراسي التالي بأسابيع قليلة، حتى إنني اختصرتُ من شهر العسل في دولة أجنبية لأتمكن من حضور محاضراتي من بدايتها ولا يفوتني أي جزء ولو كان بسيطاً من هذه التجربة الشيقة.

كانت من أجمل أيام حياتي، أقمتُ خلالها صداقات مع العديد من الفتيات، وكنّا نقضي أوقاتاً لا تُنسى ما بين المرح والجّدّ والدراسة. كنتُ متفوقةً في دراستي وفخورة بالتقدم الذي كنت أحرزه، إلى أنْ حدث ما عكّر صفو ذلك الحلم الجميل الذي كنتُ أعيشه. فقد اكتشفتُ في أحد الأيام أنني حُبلى. كان ذلك يعني نهاية دراستي وتحطّم مستقبلي، خصوصاً أن الامتحانات النهائية كانت وشيكة جداً.

كانت أيام الحمل الأولى صعبة جداً بالنسبة لي، وغالباً ما كنتُ أتغيب عن محاضراتي بسبب الإعياء الشديد، ولم يكن يمرّ عليّ يوم إلا وأتّصل فيه بوالدتي لأجهش بالبكاء وألومها على ما أعانيه، وأتهمها بأنها خدعتني عندما دفعتني للإقدام على الزواج في تلك المرحلة من حياتي. وأمام انهياري ونفوري منها، قالت لي باستسلام:

«حسنٌ. سأخرجك من عذابك هذا. افعلي ما سأمليه عليك بدقّة، لكن عليك أن تعديني بأن تبقيه سراً بيننا ولا تفشيه لأحد».

«أعدك!» قلتُ لها متوسلة.

«قومي بإعداد مشروب من بعض الأعشاب التي سأقولها لك الآن، واشربيه ثلاث مرات كل يوم».

وحصلت الأعجوبة بعيد أيام قليلة. فقد تخلّصتُ من ذلك العبء وتحررتُ من قيودي لأنطلق نحو حلمي من جديد.

كانت صدمةُ زوجي لسماع خبر خسارتنا لسبب مجهول! كبيرة، وأُصيب بحزن شديد. لكنني حاولت التخفيف من حزنه قدر المستطاع:

«لا تقلق يا عزيزي! ما زلنا في بداية حياتنا، وما تزال الأيام القادمة تحمل لنا الكثير من السعادة!».

وكي لا أقع في نفس المشكلة مرة أخرى، كما علّلتْ أمي حينها، لجأتُ إلى الأدوية الطبية دون علم زوجي.

ومرت سنة بعدها، وبدأ القلق يتسلّل إلى نفسه وخصوصاً بعد الضغط الذي أحاط به من قِبل أسرته والمجتمع من حوله ونظرات الأطباء الحائرة وهم يقلّبون أبصارهم بين أوراق الفحوصات

والتحاليل، فقد كانت تبدو كلها طبيعية. لم أكن أجرؤ على إخباره عن السبب الحقيقي.

مرّت سنة أخرى على نفس الحال. حينها قرّر اللجوء إلى الطرق الطبية البديلة. بيد أنها كانت باهظة الثمن، فاعتزم استدانة مبلغ كبير من والده وإخوته. عندها فقط تزايد قلقي حتى وصل إلى حدّ الذروة. سنقع تحت وطأة الديون، وسيضطر زوجي للبحث عن عمل إضافي لسداد الدين، كل ذلك بسببي أنا. فقررتُ الكفّ عن خدعتي وأنانيتي والبدء بالتفكير بمصلحة زوجي وعائلتي. فتوقفتُ عن تناول الأدوية.

على الرغم من أن استكمال دراستي أثناء حملي لم يكن سهلاً البتّة، إلّا أنني نجحتُ بالتخرّج بعد عناء مرير. تخرجتُ من جامعتي بتقدير جيد، إلا أنّ فرحتي كانت أكبر بطفلي الصغير.

ظلَّ كابوس جريمتي يقلق راحتي ويعكّر سعادتي. هل ألوم طموحي؟ أم أنانيتي التي منعتْ أبًا من الفرح بوليده؟ أم قلبَ أمٍّ لم ترغب في رؤية ابنتها تتوجّع وهي ترى أحلامها تتلاشى أمام عينيها؟ أسئلة كثيرة أعجز عن الإجابة عنها ليرتاح ضميري المنهك.

الدخيلة

كانت علاقتي بزوجة أبي متوترة للغاية. إذ لم أكن أكنّ لها أيّ محبة في قلبي. لم يكن قد مرَّ عام على وفاة والدتي، ووالدي كان لا يزال قريباً من الأربعين من عمره. أقنعه أهله وأصدقاؤه بأنني كنت صغيرة وغير قادرة على الاعتناء بأخي ذي العشرة أعوام وأختي ذات العام الواحد.

بكيتُ حينها كثيراً محاولة إقناعه بأنني كبيرة بما فيه الكفاية للاعتناء بهم ثلاثتهم، رغم أنني لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة. باءتْ كل توسلاتي بالفشل، ودخلتْ تلك السيدة الغريبة بيتنا الدافئ واستولت على غرفة أمي.

كنا أنا وإخوتي نقيم في غرفة واحدة، وكنتُ أحرص كل الحرص على الاعتناء بهما لعلّي أثبت لوالدي أنني قادرة على تحمّل المسؤولية فيعدِل عن فكرته بضرورة وجود تلك السيدة بيننا. فكلما كانت أختي تبكي، كنتُ أُهرَع لها بسرعة، فأعدُّ لها الطعام وأغيّر لها ملابسها وألاعبها وأتأكد من أنها تنام بهدوء.

لم يكن لدي الوقت لحل واجباتي المدرسية التي بدتْ لي آنذاك غير مهمة مقارنة بمسؤوليتي نحو إخوتي ووالدي، ومهمتي في إخراج تلك الدخيلة من عشّنا الصغير.

أذكر أنني مرة وبينما كنتُ في المطبخ أُعدّ زجاجة الحليب لأختي، كانت هي منهمكة بالطبخ وإعداد وجبة الغداء. خطرتْ لي حينها فكرة رائعة. فاستغللتُ فرصة خروجها من المطبخ وقمتُ بإضافة كمية كبيرة من الملح في وعاء الحساء المفضل لوالدي. ثم خرجتُ بعدها بسرعة لغرفتي.

على الرغم من أنَّ والدي لم يهنأ بتلك الوجبة، فقد كان ردُّ فعله هادئـًا، ولم يغضب عليها، إنما دفع بصحنه بعيداً واكتفى بتناول الصنف الآخر. الأمر الذي زاد من حنقي.

وفي إحدى الأمسيات، كانا جالسين في الصالة يشاهدان التلفاز متجاهلين وجودي أنا وإخوتي في نفس المكان. لقد كانت تسرق منا والدنا بنجاح. قمتُ من مكاني واتجهتُ نحو التلفاز وغيرتُ المحطة إلى أخرى مخصصة للأطفال، فإخوتي بحاجة للتسلية أكثر منهما.

«لماذا غيرتِ المحطة يا راية؟ إننا نتابع هذا المسلسل منذ أيام؟» سألتني تلك السيدة باستغراب.

«إنه موعد البرنامج المخصص لأخي». أجبتُها دون أن أستدير نحوها.

فما كان منهما إلا أن قاما واتجها نحو غرفتهما. كاد البركان الذي بداخلي ينفجر، لكنني بدلاً من ذلك، اتجهتُ نحو غرفتي وانفجرتُ بالبكاء بصوت مكتوم.

كنا كل عطلة نهاية أسبوع نقضي معظم النهار في إحدى الحدائق، لكن والدي، كالمعتاد، كان مشغولاً بتلك السيدة اللئيمة. أذكر أنه عندما كنا نخرج مع والدتي، كان يخصص لنا وقتاً فيأخذنا لمختلف الألعاب ويتأكد من أننا نستمتع بوقتنا، لكن هذه السيدة الشريرة قد غيرتْه تماماً وجعلتْه لا يرى أحداً سواها.

كنتُ جالسة بالقرب من الموقد الصغير، وكان عليه إبريق بداخله ماء ينتظر الغليان لصنع الشاي. وبحركة سريعة غير ملفتة، انقلب الإبريق فوق الموقد وتتطاير الماء فوق رجلي. كان ساخناً قليلاً، لكنني بدأتُ بالصراخ. هرع والدي ليرى ما حدث. ثم أحضر بعض الثلج ووضعه فوق البقعة المتأذية من رجلي لمنع تفاقم الحرق.

حملني بين يديه وركض بي إلى غرفة العناية الطبية في الحديقة. كان هلعه وخوفه علي يزيدان من بكائي. إذ لم أرَ تلك النظرة في عينيه

منذ زمن طويل. كنتُ طوال الطريق أرقب وجهه المجاور لوجهي، والدموع تنهمر من عيني دون سيطرة. هذا هو أبي. كنتُ قد اشتقتُ له كثيراً.

تم تضميد الجرح رغم أنه كان سطحيًا. لم أكن أشعر بأي ألم حينها، ففرحتي برعاية أبي لي كانت تطغى على كل أحاسيسي.

لم تستمر فرحتي لمدة طويلة، فقد انطفأ عود الثقاب وعاد كلّ شيء إلى ما كان عليه ثانية.

بعد أشهر، تلقى والدي اتصالاً من مدرستي ليتم تبليغه بتدني تحصيلي الأكاديمي. سألني عن سبب ذلك، فقلتُ له إنني أبذل جهدي، لكنني أجد صعوبة في بعض المواد. كنتُ آمل أن يعرض علي المساعدة، لكنه لم يفعل. بدلاً من ذلك، قرر توظيف معلمة خاصة بي.

مرتْ ثلاثة سنوات على تلك الحال دون أن أنجح في إخراج تلك الدخيلة من منزلنا. وفي إحدى الأمسيات وبينما كانا يحتسيان القهوة على الشرفة وكنتُ ألاعب إخوتي في الصالة، طرق مسامعي حوار بينهما وقع علي كالصاعقة.

«لقد كلَّمني أخي اليوم بخصوص خطبة راية لابنه غيث».

قال والدي وهو ينظر للنجوم البعيدة.

«غيث شاب ممتاز يليق براية».

ردتْ هي عليه.

«نعم. وهذا ما قلته أنا لأخي».

قال والدي مؤكداً كلامها.

«وسيزوروننا مساء الخميس القادم لنتّفق على إجراءات الخطبة».

خطبة!! إنها تعمل على التخلص مني! ستبعدني عن إخوتي ويخلو لها الجو لتعذيبهم. لن يحصل ذلك أبداً.

«ومن قال بأنني موافقة على هذه الخطبة يا والدي؟».

سألتُه وأنا أقف في باب الشرفة.

«وما سبب رفضك يا بنتي؟».

التفت والدي نحوي وسألني باستغراب.

«أنتِ تعرفين ابن عمك منذ الصغر، وتعلمين بأنه سيكون زوجـًا رائعـًا!».

«أنا لم أقل عكس ذلك. لكنني أرغب في الاعتناء بإخوتي».

«أنتِ لست المسؤولة عنهما طوال الحياة يا ابنتي؛ فهذه خالتك (يقصد زوجته اللئيمة) موجودة وستعتني بهما بعد زواجك».

قال والدي محاولاً طمأنتي، نعم، طمأنتي بترك إخوتي تحت رحمتها.

«لقد أخذتُ على نفسي عهداً بأن أرعاهما طوال حياتي يا أبي».

«لكن ذلك أمر مستحيل. عليك أن تسلكي طريقك الخاص بك أنت يا ابنتي، حياتك الخاصة بك، أسرتك، أطفالك».

«أخوايَ هما حياتي وأطفالي، ولن أوافق أبداً لا على هذه الخطبة ولا غيرها».

بهذه الكلمات حاولتُ وضع حدٍّ لذاك الموضوع. اتجهتُ نحو أخويَّ واحتضنتهما بقوة وأغرقتهما بحبي ودموعي.

ومرة أخرى، لم تنجح توسلاتي بإقناع والدي بالعدول عن قراره. لكنني أصررتُ على السكن بجوار إخوتي لأطمئن عليهما بشكل مستمر، فرؤية ضحكاتهما كانت غاية حياتي.

لم يكن زفافاً، بل مأتماً لسعادتي. حاولتُ جاهدةً ألا أتسبّب بالتعاسة لزوجي ولمن حولي، فلا ذنب لهم بما يحدث. لكن لم يغمض لي جفن طوال الأيام الأولى وأنا منشغلة التفكير بإخوتي، رغم أنهما كانا يقضيان معظم النهار عندي. كنتُ أخشى أن يستيقظ أحدهما ليلاً بسبب كابوس مريع فلا يجد الحضن الذي يهدّئه.

مهما مررتُ بظروف أو تغيرتْ أحوالي، سأظل بقربهما أمّـًا حانيـة وقلبـًا كبيراً يحميهما من شرور الحياة.

عَبَراتٌ خانقة

قال لي بأنني أجمل وأرقّ فتاة وقعتْ عيناه عليها. قال بأنني كنتُ أسرق النوم من عينيه، وأنني كنتُ متملّكة كل أفكاره ومشاعره، وأن كل دقة من قلبه كانت تنادي باسمي. كانت كلماته تحملني بعيداً لعالم من السحر والخيال أتراقص فيه على أنغام الحبّ والمشاعر الرقيقة، عالم كنتُ فيه الأميرة الفاتنة وهو أميري الساحر.

كانت المرة الأولى التي تُقال لي فيها مثل تلك الكلمات. هل أستحق كل هذا المديح؟ لطالما دفنتُ نفسي بين الكتب في أيام الدراسة في المدرسة في بلدتنا الصغيرة ولم أجد الوقت للوقوف أمام المرآة كأيّ أنثى.

كنتُ في البداية أتصنّع عدم الاهتمام به وبنظراته التي كانت تلاحقني في كل مكان في أرجاء الكلية. كان خلوقاً في تصرفاته، هادئاً في حديثه مع الآخرين، نبيلاً بابتسامته الرقيقة ونظراته التي كانت مثبّتة على وجهي فقط وكأنه كان ينسج الأشعار وهو يتأملني.

مرت أيام وأسابيع على تلك الحالة، دون أن يبدي أي ضغط علي، حتى قررتُ أخيراً أن أحادثه مباشرة وأسأله عمّا كان يريده.

جلسنا في مقهى الكلية. كنتُ مرتبكة جداً. حاولتُ جاهدة إخفاء توتري ورعشة يدي، حتى إنني لم أتمكن من حمل فنجان القهوة المفضّل لدي، فضحّيتُ به وتركته ليبرد.

تهرّبتُ من عينيه البنيتين وابتسامته الساحرة، لكنه استمر بالتغزل بي بنظراته. قال بأنه قد عرف الكثيرات، لكنني كنتُ مختلفة عنهن جميعًا. قال بأنه على وشك التخرج من كلية الهندسة ويرغب في الزواج من فتاة تمتلك نفس مواصفاتي. لقد كنتُ فتاة أحلامه.

مرت الأيام والليالي المقمرة. قضينا خلالها ساعات وساعات نتبادل أطراف الحديث على الهاتف. كلامه لم يكن يُمل، أحاديثه عن مشاريعه المستقبلية، طموحاته، رؤاه عن أسرة صغيرة سعيدة، وفوق كل ذلك، وجودي أنا كجزء من كل تلك الرؤى، كل ذلك جعلني أعيش أجمل لحظات حياتي.

«إنني أشتاق لكِ كثيراً وأرغب في أن تكون صورة وجهك أمام عيني طوال اليوم».

فأذعنتُ وأرسلتُ له بعض الصور.

«أريد رؤية المزيد من جمالك الفاتن».

فأذعنتُ وأرسلتُ المزيد.

ظلَّ يسحرني بكلماته ووعوده حتى وقع ما تخشاه كل فتاة. لكنه أقنعني بأننا سنتزوج قريبًا. صار يناديني بـ«زوجتي المستقبلية»، ويقدمني لأصدقائه باسم «خطيبتي».

انتهى العام الدراسي وتخرّج هو من الجامعة، كنتُ أترقب ذلك اليوم بفارغ الصبر لأنه كان بالنسبة لي بداية حياة سعيدة مع حبِّ حياتي. بُعيد أسابيع من تخرّجه وتسلّمه لوظيفته الجديدة في شركة عمّه، فاجأني بالخبر الذي فطر لي قلبي.

قال بأن عائلته قررت تزويجه من ابنة عمه صاحب الشركة. قال بأنه عارض أهله وأخبرهم بأحلامه معي، لكنهم رفضوها كلها لأنها لم تكن تناسبهم.

«سأظل أحبكِ».

قالها بعد أن حذف رقمي وكل ما يخصني من جواله، وأدار ظهره ومضى في الحياة التي كانت عائلته تعدّه لها مسبقًا. كان على دراية بتلك الخطط، لكنه تجاهلها حينذاك، وها هي ذي قد وُضِعتْ قيد التنفيذ لتكتب النهاية الحزينة لقصة حبنا.

مرّت خمس عشرة سنة على ذلك اليوم. أنا الآن موظفة، غير متزوجة، بقلب كسير محطم وعيونٍ ذابلة. لا يمر يوم إلا وتغزو

عقلـي صـورٌ مـن تلـك الأيـام، والألـم والحسـرة يعتصـران قلبـي، والعبرات تخنقني، وفي كل مرّة يسألني فيها أحد ما عن سبب عزوفي عن الزواج، ابتسم بهدوءٍ وأقول:

«أنا لا أؤمن بالحب أو الزواج».

حبٌّ ملطّخٌ بالألم

صديقتي جيداء،

ما ستقرئينه في هذه الرسالة كلامٌ ظلَّ مدفونًا في صدري طوال السنتين الماضيتين. ما سأحكيه لكِ الآن كلامٌ لم أجرؤ على قوله لك وجهًا لوجه أو حتى عبر مكالمة هاتفية.

هل تذكرين المرة الأولى التي التقينا فيها بحازم؟ كان يجلس على الطاولة المقابلة لنا في مكتبة الكلية ويسترق النظر إلينا كل هنيهة. كان حينها أمراً مسليًا لكلتينا. ظلَّ يظهر حولنا باستمرار، ثم بدأ يتذرّع بالحجج ليتبادل أطراف الحديث معنا، بل معكِ أنتِ. فقد كان معجبًا بك أنت فقط.

حينها بدأ الألم يعتصر قلبي. لماذا هي؟ لماذا لا يراني أنا؟ ما الذي يجعلها أكثر جاذبية مني؟ لم يكن ينقصني شيء حينها. كنتُ مجرد وصيفةِ الملكة.

سأصارحك القول بأنني كنتُ وقتها أسهر الليالي وأنا أجهش بالبكاء. كان الأسى يطبق على صدري فأعجز عن التنفس. وما زاد ألمي هو أنه تقدّم لخطبتك بعد أسابيع قليلة. كنتُ كلما رأيتكما معًا

أشعر بغمامة سوداء تحوم فوق رأسي محملة بصور من حظي التعس. هل تعلمين بأنني تغيبتُ عن حفل خطوبتكما لأنني كنتُ طريحة الفراش؟ كان وَصَبُ الحبّ الضائع يشلّ حركتي. فقد كان حازم من أكثر الشباب ذكاءً ووسامةً وتهذيباً، وكان فتى أحلامي، لكنه فضّلكِ أنت علي.

أصبحتِ منشغلة عني. حتى إن التقينا، فكل حديثك كان حوله هو، وحول رومنسيته، والهدايا التي كان يغمرك بها، وغيرها من القصص التي كانت تزيد من ألمي، حتى صرتُ أتفادى الحديث معك.

هل تذكرين اليوم الذي اتصلتِ فيه بي وأنت تجهشين بالبكاء لتقولي لي بأنه كان خائناً؟ وأنك وجدتِ على هاتفه بعض المحادثات الخاصة جداً بينه وبين فتاة أخرى؟ كانت حينها صدمتك كبيرة وخيبة أملك به أكبر. الحقيقة المرّة يا عزيزتي جيداء هي أن تلك الفتاة التي تسببت لك بكل ذلك الألم لم تكن إلا أنا... نعم أنا يا جيداء. إذ لم أتمكن من كبح نفسي أو منعها من الإفصاح له عن مشاعري نحوه، لكنه لم يكن يعرف أي شيء عن هوية تلك الفتاة لأنني كنتُ أستخدم اسماً مستعاراً ورقم هاتف آخر.

لم أكن أقصد التسبّب لك بأيّ أذية يا جيداء، صدقيني. كنتُ فقط هائمة بحبه ولم أكن قادرة على التفكير بالمنطق أو بعواقب تصرفي ذاك.

بعد أن كبرت الفجوة بينكما آنذاك، بذلتُ جهدي للئم الرتق الذي تسببتُ به، فكنتُ صلة الوصل بينكما. كنا أنا وحازم نقضي الساعات لمناقشة المشكلة. لا أخفيك بأنها كانت من أجمل الساعات رغم أن حديثنا كان يدور حولك أنتِ وكيفية إعادة المياه إلى مجاريها. لكنَّ عنادك حينها كان أقوى من كل محاولاتي ومن كل الاعتذارات التي قدمها لك حازم، وآثرتِ فسخ خِطبتكما.

مرت بعدها شهور عديدة وهو يحاول نسيانك، وتخرّجنا وعدتِ أنت إلى مدينتك للاستقرار، في حين أنني وحازم بقينا على تواصل. ثم جاء اليوم الذي صارحني فيه بمشاعره نحوي. لم أكن أرغب في أن أزيد من ألمك أو أن أهدّد صداقتنا، فارتأيتُ إخفاء خبر خطبتنا عنكِ.

كان ذلك اليوم الذي لطالما حلمتُ به، بيد أنه كان فرحاً ممزوجاً بقطرة من الألم. فجزءٌ مني يؤنبني لأنني كنتُ السبب وراء

انفصالكما، في حين أن الجزء الآخر مني يؤكد لي بأن القدر هو الذي كتب لكما عدم الاستمرار، وأنه هو القدر ذاته الذي ربطنا نحن الآن.

أستحلفك بأغلى ما تملكين يا جيداء، هل أنا مذنبة بحبي لحازم؟ هل أستحق العذاب الذي أعيشه منذ سنوات؟ إنْ كنتُ مخطئة في حقك، إنْ كنتُ قد تسببت لك بجرح لم يلتئم، فإنني أرجوك أن تسامحيني وتريحيني من الكابوس الذي يؤرقني.

انتظر ردّك بتلهف.

صديقتك لارا

هلّا رأيتَ ما أرى!

بين الحلم والواقع

أمسكتْ أمه بيده الصغيرة برفقٍ وسارتْ معه نحو غرفة الصف. كان هناك العديد من الأطفال الآخرين من نفس عمره. راح ينظر حوله ليستكشف المكان. طاولاتٌ وكراسيَّ عديدة ملونة، أرفف من الكتب، والكثير من اللوحات المعلّقة على الجدران المطبوع عليها أحرف وأرقام وحيوانات. إنه يحب الحيوانات وخصوصاً الديناصورات. لكنْ لم تكن هناك أي صور لها هنا.

أجلسَتْه أمّه إلى إحدى الطاولات، أمسكتْ وجهه بحبٍّ بكلتا يديها وارتسمتْ على شفتيها ابتسامةٌ مفعمة بالحنان، وراحت تخاطبه وهي تنظر في عينيه البنيتين وهما تلمعان فضولاً.

«اسمع يا حبيبي جود. أريدك أنْ تكون ولداً مطيعاً وألا تتحرك كثيراً في أنحاء الغرفة عندما تطلب المعلمة من الجميع الجلوس والاستماع لها. هل تعدني بذلك؟».

«أعدك».

قال جود بصوته الطفولي البريء بحماس.

طبعتْ قبلةً حانيةً على جبينه الصغير وأطلقتْ تنهيدة طويلة وهي تنظر إليه بنظرة ممزوجة بالحب والحزن، ثم غادرت الغرفة.

كان على الطاولة أمامه ورقة مرسوم عليها بعض الأشجار والزهور باللون الأسود، وإلى جانبها مجموعة من أقلام التلوين.

«هيا يا جود. قم بتلوين هذه الورقة».

قالت له المعلمة بلطف.

أمسك بالأقلام وراح يلون الأزهار. وردة صفراء، برتقالية، زرقاء، صفراء، برتقالية، ثم زرقاء.

لفت نظره وجود كومة من الأوراق على طاولة المعلمة. لابدّ وأنّ هناك أوراقاً أخرى للتلوين، ربما لمجموعةٍ من الديناصورات. ترك قلم التلوين واتجه نحو كومة الأوراق وراح يبحث بينها عن ورقته المنشودة.

«ماذا تفعل عندك يا جود؟ لماذا تقلّب الأوراق بهذا الشكل؟».

جاء صوت المعلمة من خلفه. أمسكتْ بيده واقتادته إلى مكانه.

«لديك ها هنا ورقة. أكمل تلوينها لو سمحت».

لكنّه يفضّل تلوين الديناصورات! جلس لبرهة ينظر حوله. كان هناك صندوق مغلق في إحدى زوايا الغرفة، وكان يبدو من تحت

الغطاء دمية قماشية. قد يكون هناك دمى مسلية في ذلك الصندوق. فقام من مكانه واتجه بسرعة إلى الصندوق بكل حماس. رفع الغطاء وراح يقلّب بينها. مرة أخرى، جاء نفس الصوت من خلفه:

«توقف يا جود عن العبث بهذه الدمى! إنه وقت التلوين الآن! عُدْ إلى مكانك لو سمحت!».

ومن جديد، أمسكت بيده وأعادته إلى مكانه. إنه لا يشعر بأي رغبة في التلوين الآن! لكن يبدو أنَّ عليه تنفيذ التعليمات.

أمسك بقلم تلوين أحمر اللون وراح يلون به الأشجار. تبدو الأشجار بالأوراق الحمراء بديعة. هنا أوراق متطايرة تتقلب بخفّة بين نسمات الهواء اللطيف، ومن حولها تحلّق فراشات ملونة. نقل بصره إلى خارج الغرفة الصفية من خلال النافذة المجاورة له. كانت النافذة تطلُّ على حديقة صغيرة خلفية للمبنى محاطة بسورٍ من الأشجار المرتفعة تصطف من أسفلها أحواض بيضاء من الأزهار الملونة. كان بإمكانه رؤية مجموعة من الفراشات بأجنحة كبيرة. رفع أصبع السبابة إلى الأعلى وأغلق إحدى عينيه ليرى بشكل أوضح إحدى الفراشات وهي تقف على أصبعه. كانت تبدو بديعة

بتلك الأجنحة الكبيرة بألوانها الزاهية، لكن سرعان ما أيقظه من تلك اللحظة الساحرة صوتٌ مريعٌ.

«جود! أين أنت؟ هل تسمع ما أقوله؟».

«نعم يا معلمة. أسمعك».

هل حقًا سمع ما قالته؟ نظر حوله، كان الجميع يُخرِجون علب الطعام الخاصة بهم من حقائبهم لتناول وجبة خفيفة. فمدّ يده هو أيضًا إلى حقيبته وأخرج علبة طعامه.

هذا ليس بالضبط المكان الذي كانت أمه تصفه طوال الأسابيع الماضية. كانت تقول بأنه مكانٌ مسلٍّ ومليء بالمرح والأصدقاء الجدد. لكنه ليس كذلك!

الألواح الخشبية العائمة

بينما كان يستمتع بوجبته، لفت انتباهه أن قطع الرخام على أرضية الغرفة مؤلفة من مربعات كبيرة الحجم أشبه بقطع خشبية تطفو فوق بحيرة كبيرة. رغم كبر حجم الألواح الخشبية، راح يفكّر بأن بإمكانه القفز من واحدة إلى أخرى دون أن يسقط في ماء البحيرة، وسيثبت ذلك الآن. فقام من مكانه ووقف وسط اللوحة الخشبية الأولى وهو يضم قدميه الصغيرتين إلى بعضهما البعض، ثم انطلق كالسهم نحو اللوح التالي ليقف في وسطه بالضبط. لقد فعلها! إنه يمتلك قوة خارقة! ابتسم لنفسه ثم راح يقفز من وسط لوحة عائمة إلى أخرى. فجأة اصطدم بفتاة ظهرت من مكان مجهول، وسقطا على الأرض. شقَّ صراخها الحادّ الهواء كصفير القاطرة وشرعتْ بالبكاء. هرعت المعلمة نحو الفتاة وراحت تتفحصها للتأكد من عدم إصابتها بأي جروح. كانت بخير.

«ما الذي تفعله هنا يا جود؟».

سألتْه المعلمة بلهجة حادة.

«لماذا لا تجلس إلى مقعدك وتتناول وجبتك بهدوء؟».

أمسكتْ بيده واقتادته إلى مكانه وأجلسته على الكرسي.

«لا تتحرك من مكانك يا جود!».

ما بالها غاضبة؟ كان فقط يقفز على الرخامات وقامت الفتاة فجأة من مكانها فاصطدم بها. لم يكن يقصد إيذاءها.

تناسقٌ بديع..

جلس بهدوء يتناول وجبته. بدتْ له قطعة السندويش مثل ديناصور عملاق أمام قطع المكسرات وحبّات العنب. كان الديناصور جائعًا، فهجم على كرات العنب والتهمها. ثم نمتْ له أجنحة كبيرة وراح يحلّق في الفضاء وهو ينفث النار من بين فكّيه العملاقين ويصدر صوتًا مخيفًا كالبركان هكذا...

«فوووووو... فوووووووو!».

«لا تعبث بطعامك يا جود! تناوله بهدوء!».

ذلك الصوت مرة أخرى! لقد حوّلَ ديناصورَه إلى دخان ما لبث أنْ تلاشى.

متى سيحين موعد العودة إلى منزله؟ إنه يفتقد غرفته المليئة بالألعاب، ورسوماته البديعة على الجدران المغطاة بورق أبيض مخصص للكتابة والرسم. تمرُّ هناك الساعات الطويلة دون ملل، يحكي خلالها لأمه القصص والحكايات وهي تنصتُ له باستمتاع، وفي النهاية تقبّله وتلقبه بالعبقري. لماذا تأخرتْ أمه؟

راح يتأمل الغرفة من حوله. ألوان الطاولات والكراسي متّسقة بشكل لافت. طاولة حمراء مع ثلاثة كراسيَّ صفراء، ثم طاولة صفراء مع ثلاثة كراسيَّ حمراء، وعلى تلك الطاولة يجلس صبي وفتاتان، أما على الطاولة الأخرى فتجلس فتاة وصبيان اثنان. يا له من تناغم بديع! ماذا لو كان كلٌّ واحد يجلس في غرفة زجاجية شفافة مغلقة؟ كان حينها بإمكانه الاستمتاع مع ديناصوراته الطائرة دون إزعاج من تلك السيدة. ماذا لو كان يجلس في قارب خشبي جميل في تلك البحيرة السحرية ومن حوله تطفو الألواح الخشبية الكبيرة؟

أطلق تنهيدة صغيرة وعاد إلى وجبته الخفيفة.

الغرفة السحرية

مرت عدة أيام مملة. لم يكن يرغب في الوجود في ذلك المكان. في نهاية أحد الأيام، عادت والدته لاصطحابه كالمعتاد، لكنهما لم يتوجها نحو السيارة هذه المرة، بل اتجها نحو غرفة أخرى. كانت الغرفة شاسعة، إلى اليمين خزانات كبيرة مملوءة بالملفات، وإلى اليسار أرفف تصطف فوقها كؤوس وميداليات. وفي نهاية الغرفة يقف مكتب خشبي كبير تجلس خلفه سيدة ترتسم على وجهها ابتسامة صغيرة.

دار حوارٌ حادّ بين تلك السيدة ووالدته لم يفهم معظمه. التقطتْ مسامعُه بعض الكلمات مثل «كثير الحركة والشرود» و«يتسبب بالأذى لبقية الأطفال».

كانت والدته تتكلم بانفعال ممزوج بالغضب والاحتجاج والألم. هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أمَّه بهذا الحنق والحزن. اقترب منها ووضع يديه بين يديها وراح ينظر في عينيها كأنه يقول لها:

«أرجوكِ توقفي!».

وكأن تلك اللمسة كانت عصا سحرية أطفأت كل ذلك الهياج في نفسها. نظرتْ إليه بعيون كادت تدمع:

«هيا يا بني. هذا المكان لا يناسبك. دعنا نعد للبيت».

نعم. هذا ما كان يريده بالضبط. البيت وغرفته السحرية وديناصوراته الطائرة.

40 شمعة.. ثم ماذا؟

صباحٌ روتيني

أخذتْ مكانها خلف عجلة القيادة وسحبتْ نَفَساً عميقاً إلى أعماق رئتيها، وأغمضتْ عينيها، ثم أفلتتْ أنفاسها ببطء وعيناها ما زالتا مغلقتين. كانت تحاول الحفاظ على هدوئها وكَبْتِ تلك الصرخة المدفونة داخل صدرها. وبطريقة مصطنعة للغاية، رسمتْ ابتسامة مزيفة جداً على وجهها واستدارتْ وقالتْ بهدوء:

«حسناً، يا طفلي المدلل! هلّا توقفتَ عن البكاء لتقول لي ماذا تريد بالضبط؟».

ظلَّ الصبي الصغير ذو الأربع سنوات يبكي وقد امتزجت كلماته غير المفهومة بشهقات بكائه.

«ماذا قلتَ؟».

سألَتْه مرة أخرى. لكنْ، وللمرة الثانية، ضاعتْ كلماته وسط بكاءٍ ودموع.

«يقول إنه لا يريد الذهاب إلى المدرسة».

شرح لها عمر ذو العشر سنوات دون أن يرفع عينيه عن هاتفه المحمول. نظرت الأم التي لا حول لها ولا قوة إلى طفلها الصغير ورسمتْ نفس الابتسامة المزيفة مرة أخرى وقالت:

«لكن عليك أن تذهب يا حبيبي! لا يمكنك البقاء في المنزل أثناء وجودي في العمل وإخوتك في المدرسة!».

«لكني أريد أن أبقى مع مايا!».

ردَّ الطفل من بين دموعه.

«لا يمكن!».

ردت الأم بحزم.

«لا أستطيع أن أبقيك مع الخادمة!».

انطلقت ضحكة ساخرة من ابنتها اليافعة التي كانت جالسة بجانبها، وذراعاها مطويتان على صدرها، ورأسها مائل للخلف، وقبعة سترتها تغطي وجهها تقريباً.

«كأنكِ لم تتركيه معها أبدًا وأنتِ تدفنين نفسك في عملك داخل غرفتك».

قالتها الابنة ساخرة.

«لكنكم جميعاً موجودون أيضاً في المنزل يا ميرا!».

قالت الأم وهي تحاول السيطرة على أعصابها.

«وللمرة الألف، راقبي ألفاظك ونبرة صوتك عندما تتحدثين معي!».

«لا يهم!».

قالت الفتاة باستهتار وهي تشيح بوجهها نحو نافذة السيارة.

«هيا يا رشود! توقف عن ذلك! سأشتري لك بعض الحلويات في الطريق إلى المدرسة! ».

قالت الأم بيأس.

«أريد بعض الوجبات الخفيفة أيضًا!».

صرخ فيصل ذو السبع سنوات من المقعد الخلفي.

«بالتأكيد!».

قالت الأم بحماس وهي تشغل سيارتها، وضغطتْ على الدواسة بغضب وحنق، متجاهلة بكاء راشد الذي أصبح أعلى الآن.

الموناليزا

بعد إيصال راشد إلى الحضانة، وفيصل وعمر إلى مدرستهما، وصلتْ شيماء أخيرًا إلى المدرسة حيث تعمل. غادرت ميرا السيارة على الفور وبدأت في السير ببطء نحو فصلها، إذ إنها تدرس في نفس المدرسة. بينما استغلت شيماء هذه اللحظة لتجمع شتات نفسها. أطفأتْ سيارتها، ونظرتْ إلى نفسها في المرآة:

«ها أنت ذي! المعلمة المتميزة شيماء! الحائزة على جائزة أفضل معلم، الموظفة الأكثر إبداعًا واجتهاداً».

أخذتْ شهيقًا عميقًا، ثم نزلتْ من السيارة. الآن، اعتلتْ وجهَها تعابيرُ الابتهاج ممزوجة بثقةٍ متناهيةٍ، ولمعتْ نظرةٌ حادةٌ في تلك العينين البنيتين. ومع هذا الانقلاب الناجح، شقّتْ المعلمة شيماء طريقها برشاقة نحو حرم المدرسة.

في الممر، وبينما كانت تقترب من غرفة الموظفين، كانت تعلو أصوات المعلمات وضحكاتهن الممزوجة بشكل ساحر برائحة القهوة والعود والبخور.

«صباح الخير أيتها السيدات الجميلات!».

قالت شيماء معلنة وصولها.

«صباح الخير!».

ردَّ الجميع.

«كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع؟».

سألتْ شيماء وهي تشقّ طريقها برشاقة نحو مكتبها.

«حدّثينا أنتِ عن إجازتك يا شيماء».

قالت إحداهن.

«لقد رأينا الصور التي قمتِ بنشرها على الانستغرام!».

علّقتْ أخرى مع غمزة سريعة.

«لقد كانت من أروع عطلات نهاية الأسبوع على الإطلاق!».

أجابت شيماء بفرح شديد وحماسة.

«أقمنا في فندقٍ على الشاطئ. لا أستطيع أن أصف لكُنّ روعة تلك الليالي وسحرها».

بالطبع لن تخبرهم أن طفلها راشد كاد أن يغرق في حمام السباحة بينما كانت هي مشغولة بتصوير فطورها الباهظ والفاخر، ولا ينبغي لها أن تخبرهم أيضاً أنه بينما كانت تندفع لإنقاذه، اهتزت الطاولة ووقع فنجان القهوة تاركاً بقعة مريعة على فستانها الأبيض الجديد

من إحدى الماركات الشهيرة. وربما لا ينبغي لها أيضًا أن تكشف عن الجدال الحادّ الذي انفجر بينها وبين زوجها حول عدم منح أطفالهما ما يكفي من الرعاية والمراقبة.

«تذهلني كثيرًا قدرتكِ على الحفاظ على أداء متميز هنا في العمل، وعيش حياة مثالية ورائعة مع عائلتك في الوقت ذاته!».

علّقت إحداهن.

«ليس الأمر سهلاً كما يبدو، عزيزتي فاطمة».

أجابتْ شيماء وهي تتكئ على كرسيّها ممسكة بكوب القهوة بكلتا يديها المنقوشتين بالحناء. لمع الخاتم الماسيّ في إصبعها مضيفًا المزيد من التألق إلى أظافرها المصقولة بدقّة.

«لأصارحك القول، أتمنى لو كان هناك أكثر من 24 ساعة في اليوم!».

أضافتْ شيماء قبل أن تحتسي قهوتها بهدوء.

سباق مع الزمن

رفعت معلمة أخرى رأسها من خلف حاسوبها الخاص:

«بصراحة، بالكاد أجد وقتاً للنوم! فبعدَ نهاية الدوام، أعود إلى المنزل لأكون «الزوجة الصالحة»، فأطبخ وجبة الغداء لأبنائي وزوجي، ثم أغسل الأطباق، ثم أتأكد من أن زوجي يأخذ قيلولته اليومية بسلام».

«بعدها».

أكملتْ واحدة أخرى:

«عليكِ أن تكوني «الأمّ الصالحة» وتهتمي بالواجبات المدرسية والاختبارات والمشاريع لأطفالك! وبعد ساعات من الصراخ والمطاردة لإقناع الأطفال بأداء واجباتهم، يحين الوقت لوضعهم في الفراش، نظيفين، غير جائعين، وسعداء!».

وأنهت تعليقها برسم علامات اقتباس بأصابع يديها.

وهنا أكملت علياء التي كانت بالكاد تُرى من وراء أكوام الكتب على مكتبها:

«وبعد كل ذلك العناء، سيكون الوقت قرابة منتصف الليل! عندها فقط ستتاح لك الفرصة لتقرري إما الذهابَ إلى سريرك للنوم، وإما البدءَ بالعمل على تجهيز الخطط والدروس لليوم التالي حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً. سيتبقى لك حوالي ثلاث إلى أربع ساعات لتريحي عينيك قبل أن يبدأ يوم جديد وصراع جديد!».

وبتنهيدة مليئة بالأسى والإحباط، عادت علياء إلى كومة الكتب.

«إلا إنْ كان لديك طفل يبلغ من العمر بضعة شهور، يا حبيبتي علياء!».

علّقت سلامة.

«ففي كل يوم عند الساعة السادسة صباحاً، أضع طفلي الصغير عند المربية وأعود لأخذه قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر. في اللحظة التي يراني فيها، ينطلق بالبكاء بشدّة! ويبقى مستيقظاً حتى الصباح، محاولاً التذرّع بأي سبب للبكاء بلا توقف ما لم أحمله وأحتضنه لساعات. كيف سأتمكن من القيام بأيٍّ من أعمالي؟».

خرجت الكلمات الأخيرة من بين شفتيها مع دموع كادت تتدحرج من مقلتيها، لكنها جاهدت لضبط نفسها وكبح دموعها بابتسامة واهنة مليئة بالألم، وسرعان ما أخفت وجهَها خلف كفّها.

بادرتْ أسماء وهي تحاول تهدئتها:

«لا يجب أن تجهدي نفسك يا سلامة، أو تشعري بالذنب لأنك لم تقومي بواجباتك كما يجب، أو لعدم إعطاء طفلك الرعاية الكافية. عائلتك هي أولويتك في الحياة! أنت تعملين كي تتمكني من دعمهم وإسعادهم. بالنسبة لي، بمجرد خروجي من العمل، أنسى كلَّ شيء عنه. أقوم بتحويل جُلِّ اهتمامي نحو عائلتي ونفسي. اسمحوا لي أن أسألكنَّ يا سيداتي. من منكنّ تبلغ من العمر أقل من 40 سنة الآن؟».

نظرت حولها. رفعت معلمتان اثنتان فقط يديهما. تابعت أسماء:

«كم واحدة منكن تتناول أدوية مثل الفيتامينات وما شابه؟».

المثير للدهشة هو أن معظمهنّ رفعن أيديهن وقد ارتسمت على وجوههن ابتسامة ممزوجة بالحزن والشفقة على الذات.

«بالضبط! هذا ما أعنيه!».

أكملت أسماء حديثها بتلهف:

«يفترض أن يكون سن الأربعين فترة الإنتاجية والازدهار للمرأة، سنّ الشباب، والصحة، والقوة! ومن المهم لنا أن نقرر ما هو الأفضل لأنفسنا ولعائلاتنا وأطفالنا».

توقفت علياء عن تصحيح الكتب المكومة أمامها وراحت تصيخ السمع لأسماء. بدا كلامها منطقياً.

«لاحظنَ معي يا عزيزاتي».

تابعت أسماء وهي تشرح بيديها:

«إن مُنحنى صحتنا قد بدأ يتجه نحو الأسفل بالفعل! بدأتِ الخطوطُ ترتسم على وجوهنا لتحكي قصص الحزن والتوتر والإرهاق. بحلول الوقت الذي نتقاعد فيه، سنكون مرضى وضعفاء جداً بحيث نعجز عن الاعتناء بأنفسنا! لا أريد أن أقضي بقية حياتي تحت رحمة الآخرين! سأفشي لكنّ سراً».

حملتْ فنجانَ القهوة الخاص بها، رشفتْ منه رشفةً خفيفة، ثم أكملتْ:

«لقد حدّدتُ هدفًا لنفسي. أريد أن أصل إلى سن السبعين بجسم وعقل وروح صحية سليمة حتى أتمكن من بدء مشروعٍ خاصٍّ بي. لن أكون قادرةً على تحقيق ذلك إن استنفدتُ كل طاقتي الجسدية والعقلية والعاطفية وأنا ما زلت في سن الأربعين».

صفعةٌ على الوجه

كان هناك صمتٌ قاتلٌ في الغرفة. واكتسحتْ نظرةٌ مليئة بالذّعر كلَّ الوجوه.

ردّت مريم محطِّمة ذلك الصمت الشبحي:

«كلُّ ما قلتِه صحيحٌ يا أسماء».

التفتَ الجميع لمريم التي أردفتْ قائلة:

«ولكنْ دعونا نكن واقعيين. نحن بالكاد نحصل على دقائق معدودة للاستراحة خلال ساعات العمل مع كل هذه المهام التي لا تمنحنا أدنى فرصة للاعتناء بأنفسنا أو بعائلاتنا».

ردت سارة من الجانب الآخر من الغرفة:

«أنا أتفق معك. إنني أستيقظ كل صباح لأردّد لنفسي أنني سأترك وظيفتي في ذلك اليوم. ثم أتذكر جميع المسؤوليات والالتزامات المالية التي نتحملها أنا وزوجي تجاه عائلتنا وأطفالنا».

تناولت شيماء رشفة غير مسموعة من قهوتها. تردّد صدى كلمَتي «العائلة والأطفال» في رأسها. لسبب ما غير واضح تذكرتْ فجأة

كلمات شخص مشهور على شاشة التلفاز كان قد فَقَدَ ابنه البالغ من العمر خمسة عشر عاماً في حادث سيارة:

«لم أجد الوقت الكافي لأخبره كم أحببتُه! رجائي لكم جميعاً أن تمنحوا أطفالكم ما يكفي من الحبّ قبل فوات الأوان!».

إنها تفتقد أطفالها بالفعل! متى كانت آخر مرة قضتْ فيها وقتاً ممتعاً مع ميرا؟ ما هي الألعاب التي يلعبها عمر طوال الوقت بعد المدرسة وخلال عطلات نهاية الأسبوع؟ والتقارير المدرسية لفيصل لم تكن مُرضية العام الماضي. وراشد! مسكين راشد! إنه يفضّل مايا عليها لتعتني به لأنها مشغولة جداً بكونها «أفضل معلمة».

لم تكن الأمور هكذا قبل زواجها. فبعد تخرّجها مباشرة وبدء عملها، كرّستْ جُلّ وقتها للعمل. كانت الرؤية الوحيدة التي تحوم باستمرار أمام ناظريها في ذلك الوقت هي تصوّر نفسها على أنها المعلم الأكثر نجاحاً. وبينما هي منغمسةٌ في العمل والتميز والإنجاز، وفي مكان ما على طول الطريق، تركت أطفالها يتساقطون منها هنا وهناك. لقد كانوا برفقتها في عربة السباق الخاصة بها، فهل لاحظت ذلك من قبل! ما كانت تقدمه لهم هو مجرد أساسيات الرعاية، لكن ليس التفاني الكامل الذي يحتاجونه.

فجأة، رنَّ جرس المدرسة ليقطع حبل الأفكار ويتركها في حالة من الفوضى والاضطراب، وليعلن بدء الانطلاق نحو معركة جديدة.